حضارة تمبكتو منذ أواخر القرن الخامس الهجري

د.عامر عمر سلام*

تقع مدينة تمبكتو على ضفة نهر النيجر تحفها الصحراء، مُصرت في العهد الإسلامي إثر انتشار الإسلام في ربوع السودان الغربي في أواخر القرن الخامس الهجري، قام بإنشائها طوارق (مغشرن) (السعدي، 1953، 20–21)، وكانت في بداية تأسيسها بلدة صغيرة يرتادها الطوارق في حلهم وترحالهم فجعلوها خزانة لمتاعهم وزروعهم. ثم توسعت وأضحت (مسلكاً للسالكين في ذهابهم ورجوعهم). وربط المؤرخ السعدي تسميتها بوظيفتها السكانية الأولى باعتبارها مخزن حسبما ما هو معروف في لغة الطوارق (عبد القادر،1985، 284)، وقد ربط البعض تسميتها بالشخص المكلف بحراستها والمدعو (تيبوتوالي)، ثم تحولت على السنة السود إلى تونبوتو ولفضها العرب تونبوكتو (التنبكتي، 1914، 70)، وجاء ذكرها في مصادر التاريخ المحلي السوداني بلفظة تنبكت ربما كان اختصاراً للفظها ولسهولة تسميتها (دائرة المعارف الإسلامية، 48)، وتقوم أطلالها اليوم على مسيرة عشرة أميال جنوب المدينة الحالية (ابن بطوطة، ب–ت، 430–431).

زارها ابن بطوطة (ت: 753هـ/1351م)، فضبط اسمها بضم التاء المعلوة، وسكون النون، وضم الباء الموحدة، وسكون الكاف، وضم التاء المعلوة ثانية وواو، وبينها وبين النيل {النيجر} أربعة أميال، وأكثر سكانها مسوفة أهل اللثام، وحاكمها يسمى قريا موسى، حضرت عنده يوماً.. وبهذه البلدة قبر الشاعر المعلق أبي موسى الساحلي الغرناطي المعروف ببلده بالطويخي، وبها قبر سراج الدين بن الكوبك أحد كبار التجار من أهل الإسكندرية (زاهر، 1968، 159).

وصف الحسن بن الوزان (ت: 959هـ/1552م) تمبكتو إذ كتب عن حياتها الاجتماعية والاقتصادية قائلاً: (هناك.. دكاكين كثيرة لصناع وتجار وخاصة ناسجي الأقمشة النيلية والقطنية، وإلى هناك يجلب التجار البربر أقمشة من أوربا. وجميع نساء المنطقة بوجوه محجبة يبتعن الاحتياجات الضرورية لهن، أما السكان وخاصة الغرباء المقيمين هناك كثيرو الثراء إلى حد أن الملك الحالي زوج بنتيه إلى تاجرين ثريين. وهناك كثير من الآبار تحوي أحلى المياه.. إن الملك ينفق بسخاء على عدد كبير من الأطباء والقضاة ورجال الدين والفقهاء، والتجار يحملون إلى المدينة مخطوطات مختلفة من الكتب المكتوبة في بلاد البربر وهي تباع بثمن أغلى من أي نوع

* قسم التاريخ الإسلامي، كلية الآداب صبراتة، جامعة الزاوية، Dr.amer57@yahoo.com

آخر من التجارة.. وهناك نهر النيجر يسير نحو الغرب إلى المحيط وقد أبحرنا فيه مع التيار من تمبكتو إلى جني ومالي (الفتاش، 178 ومابعدها).

قال محمود كعت التنبكتي (ت: 1002هـ/1593م) إنها في غاية الحسن والجمال وإقامة الدين وإحياء السنة بها ما شئت من دين ودنيا.. وهي يومئذ موصوفة ببعض ما وصف الحريري البصري.. بتنبكت يومئذ لا نظير لها في البلدان من بلاد السودان إلى أقصى بلاد المغرب من بلاد مل مروة ومرية وتعففاً وصيانة وحفظ العرض ورأفة ورحمة بالمساكين والغرباء وتلطفاً بطلبة العلم وإعانتهم) (السعدي، 1961، 20).

وقال مؤرخها عبد الرحمن السعدي (ت: 1063هـ/1655م) ضمن باب (ذكر تنبكت ونشأتها) (فنشأت على أيدي طوارق مغشرن في أواخر القرن الخامس من الهجرة.. موضع هذه البلدة الطيبة الزكية الفاخرة إلى ذات البركة وحركة التي هي مسقط رأسي وبغية نفسي ما دنستها عبادة الأوثان ولا سجد على أديمها فقط لغير الرحمن مأوى العلماء والعابدين ومألف الأولياء والزاهدين وملتقى الفلك والسيار فجعلوها خزانة لمتاعهم وزروعهم إلى أن صار مسلكاً للسالكين في ذهابهم ورجوعهم ومخازنهم) (ستودار، 1352هـ، 43-45).

واستقرت في تمبكتو بعض الجماعات العربية منهم الكوننفة البكاؤون الذين انتشروا في جهات متعددة منها وينتهي نسب هؤلاء إلى سلالة الفاتح العربي الكبير عقبة بن نافع بن عبد القيس الفهري (زاهر، 90-133). هذا علماً أن سكان تمبكتو من أصل بربري وزنجي وشعبها (ذوو بشرة زنجية الدم البربري يجري في عروقهم) (السعدي، 22).

أضحت تمبكتو بعد تمصيرها رهينة بالظروف السائدة في منطقة السودان الغربي والمحددة بقوة الممالك وملوكها. فقد بقيت تحت سيطرة دولة مالي ما يقارب المائة عام (737-837هـ/ 1336-1433م)، الذي أوكلوا أمر إدارتها إلى صنهاجة المتمثلة في شخص محمد نض. وشهدت تمبكتو بعد عام 837هـ/1433م، فترة من عدم الاستقرار لخضوعها لسيطرة الطوارق. ولما كان هؤلاء يحبذون السكنى في البراري فقد قرر سلطانهم آكل ببقاء تمبكتو تحت إشراف صنهاجة واستمر محمد نض الصنهاجي في أمر إدارتها. وتم الاتفاق بين نض وملك الطوارق آكل على تقسيم أبرادات تمبكتو –المتحققة في التجارة وغيرها– بينهما بواقع الثلث إلى المدينة والثلثين إلى ملك الطوارق. ولكن هذا الأمر تغير بعد وفاة محمد نض وآكل وتسلم عمار بن آكل زعامتهم. فقد

أثر السيطرة على جميع الإيرادات واتخذ في الوقت نفسه سياسة تدعو إلى معاملة أهل تمبكتو بالعنف والشدة (وبقوا يسعون في الأرض فساداً ويخرجون الناس من ديارهم قهراً).

وبناء على ذلك اتخذ عمر بن محمد بن نض الذي خلف والده في إداراتها خطة تعتمد على مكاتبة ملك شنغاي وهي الدولة المجاورة لمالي يدعوه إلى دخول تمبكتو والسيطرة عليها موضحاً له الأحوال العامة للمدينة والظروف السائدة فيها (واصفاً له أحوال كل شيء في قدره وفي جسمه) (السعدي، 22-24).

جمع سن علي ملك السنغاي قواته وقادها نحو تمبكتو وتمكن من السيطرة عليها وبعد هروب سلطان الطوارق وحاكمها الصنهاجي. وبدأ عهد جديد في مدينة تمبكتو يتمثل بخضوعهم إلى دولة سنغاي والذي ابتدأ بالعنف والشدة والخراب (المصدر نفسه، 64-65).

وقدم صاحب كتاب السودان تفصيلاً لسياسة العنف التي اتخذها سن علي إزاء مدينة تمبكتو التي تسلط عليها حتى وفاته عام 898هـ/1492م. فقد وصفه بأنه كان (ظالماً فاسقاً معتدياً متسلطاً سفاكاً للدماء) ووصف سياسته قائلاً: (دخل في تمبكت.. عمل فيها فساداً عظيماً جسيماً فحرقها وكسرها وقتل فيها خلقاً كثيراً) (المصدر السابق، ص65). وبين كذلك معاملته لعلماء تمبكتو قائلاً: (فاستغل الظالم الفاسق بقتل من بقي منهم في تنبكت وإهانتهم) علماً أن كل سلطان الطوارق أنقذ عدداً من علماء هذه المدينة من براثن هذا الملك قبل وصول الأخير للمدينة حيث (أحضر ألف جمل لحمل علماء وفقهاء جامع سنكري ومشى بهم إلى بير) (المصدر نفسه). وقد علل السعدي سياسة سن بن علي العدوانية وبحسب ادعاء هذا الملك إلى العلاقة الحميمة القائمة بين الطوارق وتمبكتو حيث (زعم أنهم أحباء الطوارق وخاصتهم) (المصدر نفسه، ص99).

وبعد وفاة الحاكم سن علي، عام 898هـ/1492م، تتابع سلاطين سنغاي في حكم تمبكتو باعتبارها جزءاً من أراضيها تحت سيادتها. والأمر المتميز في حكم هؤلاء السلاطين في العلاقات السيئة التي كانت قائمة بين سنغاي وملوك مراكش والتي كانت لها أثراً سلبية على مستقبل هذه المدينة وبدأ من عام 953هـ/1546م وخلال حكم السلطان اسكيا اسحق. فقد كتب إليه احمد الكبير سلطان مراكش (أن يسلم له معدن تفاز) (المصدر نفسه). باعتباره من جملة المعادن (التي يختص بيت مال المسلمين بخراجها المستفاد وللإمام فيها النضر والاجتهاد).

وحدد سلطان مراكش الخراج المطلوب بأن يكون (مثقالاً على كل جمل من سائر الإبل التي ترده تؤمه من سائر الجهات) (عبد القادر، 317 وما بعدها)، معللاً الأهمية المتأتية من هذا

الخراج ضمن رسالة أرسلها إلى ملك سنغاي قائلاً: (وقصدنا بما يحصل من ذلك صرفه إنشاء الله في سبيل الغزو والجهاد وفي أرزاق ما لنظرنا العلي من العساكر والأجناد التي جعلناها لنكاية عدو الدين بالمرصاد واعتدنا للذب من كلمة الإسلام وخياطة البلاد) (السعدي، 99-100). وكانت إجابة أسكيا اسحق عليه: (أن أحمد الذي سمع ليس هو أباه ما زال ما حملت به أمه). وكوسيلة لإثبات قوة دولة سنغاي أرسل حملته باتجاه درعة المراكشية مؤلفة من (ألفين ركاباً من الطوارق) وأمرهم بالإغارة على سوق المدينة مع عدم التعرض لأرواح الناس (فأكلوا جميع ما وجدوا في ذلك السوق من الأموال فرجعوا كما أمرهم وما قتلوا أحدا وما ذلك إلا ليرى السلطان احمد المذكور قوته) (المصدر نفسه، 106-107).

لكن سلطان مراكش بقي عازماً على المطالبة بخراج تفاز والسيطرة عليها. ففي عام 1964هـ/1557م أرسل سلطان مراكش المقاتلة بالتعرف على موقع الملح في المنطقة من اطلي وتفاز وتم قتل عدداً من الجماعات التي كانت تعمل في استخراجه. وإزاء ذلك أذن السلطان أسكيا أسحق للناس في طلب الملح من مناطق أخرى غير تفاز واطلي فتم حفر تفاز الغزلان التي تقع جنوب تلك المدن (السعدي، 1953، 111).

وبعد وفاة أسكيا أسحق سلطان سنفاي جدد أحمد الذهبي سلطان مراكش الجديد طلبه في دفع الخراج على ملح تفاز لسنة واحدة فأجاب طلبه أسكيا داود وأرسل له عشرة آلاف ذهباً وعطية خير (زكي، 147)، فكان هذا سبباً في تحسن العلاقات بين الطرفين وأن كان ذلك لفترة قصيرة إذ سرعان ما أخذ سلطان مراكش يخطط في الكيفية التي يتم بها السيطرة على السودان الغربي. وكانت الخطة التي اعتمدها سلطان مراكش تقوم بإرسال العيون إلى المدن سنغاي للتحري عن الأوضاع العامة السائدة فيها والتعرف على القوة العسكرية لسلطانها. وكانت هذه العيون متخفية تحت ستار رسل حملت الهدايا إلى السلطان الحاج امحمد. وبعد عودة هذه الرسل أعد السلطان مراكش جيشاً مؤلفاً من عشرين ألف مقاتل باتجاه ودان الواقعة جنوب شرق موريتانيا (السعدي، 121).

وأمرهم بأخذ ما هناك من البلدان على شاطئ البحر وغيرها. وهدف الحملة المركزي يكمن في الوصول إلى تمبكتو والسيطرة عليها. فلما وصلت الأخبار لها هرب أهلها خوفاً. لكن هذا الجيش لم يكتب له النجاح في الوصول إليها إذ سرعان ما انهار وتشتت بفعل الجوع والعطش. لكن هذه الخسارة الكبيرة لم تمنع سلطان مراكش من إعادة الكرة بإرسال جيش إلى مدينة تفاز (وأمره بأخذ أهله). فهرب أهلها شأنهم شأن تمبكتو خوفاً من بطش الجيش المغربي.

وعندما وصل هذا الجيش إلى المدينة وجدها خالية من أهلها فقد غادروها أيضاً (المصدر نفسه، 4)، استمرت العلاقات المتوترة بين سنغاي ومراكش ووصلت حدتها خلال حكم اسكيا اسحق الثاني (997-1000هـ/1588-1591م) حيث عزم السلطان المنصور ملك المغرب على السيطرة على سنغاي ومواردها من الذهب.

ففي سنة 998هـ/1589م طلب سلطان مراكش خراج تفاز ورفض سلطان سنغاي ذلك فأعد السلطان المنصور العدة في السيطرة على سنغاي واستشار في ذلك الوزراء والعلماء والحكام وزعماء القبائل.

لكن هذه الجماعات لم تؤيد السلطان المنصور بسبب ظروف الصحراء القاسية وصعوبة التموين ورغم هذه المعارضة أصر السلطان المنصور على إرسال حملة مؤلفة من أربعة آلاف مقاتل إضافة إلى الأتباع من الصناع والأطباء. وقد وصفت هذه الحملة بأنها من أضخم الحملات التي عرفتها الصحراء وكانت بقيادة جودو. استطاعت هذه الحملة من تحقيق أهدافها والوصول إلى تمبكتو. وبدأ عهد جديد في هذه المدينة يتمثل في خضوعها للسيطرة المغربية. وقامت مراكش بتجريد حملات أخرى نحو هذه المدينة لتوطيد سيطرتها على تمبكتو منها الحملة التي كانت بقيادة محمود بن زرقون التي خرجت من مراكش عام 1067هـ/1656م (مجهول، 1966، 4).

كانت السيطرة المغربية على تمبكتو فترة صعبة جداً على المدينة لما رافقها من أمور سلبية هددت مستقبل تمبكتو ومكانتها العلمية والتجارية. وقد وصفت مصادر التاريخ المحلي للسودان الأحوال التي سادت هذه المدينة والمعاملة السيئة التي اتخذها قادة وحكام مراكش.

بين صاحب كتاب الفتاش عما أصاب تمبكتو من الحملة المغربية التي دخلت المدينة عام 999هـ/1591م قائلاً: (شرعوا في تلفيف الديار والطرق وهدم بعض الديار، ولا فتنة أعظم ولا أكبر على أهل تنبكت ولا أمر منه نادي الباشا جودو علماء تنبكت وتجارها ووظف عليهم العبيد والخدم لبنائها {بناء معسكر خاص لجيشه}) (التنبكتي، 157).

واصل محمود كعت وصف ما لحق بتمبكتو من هذه الحملة قائلاً: (وأخبرني شيوخ تنبكت.. إن الباشا جودو قطع على تجار تنبكت وقت الباء {بناء معسكر} ألفا ومائتين صينية عند استهلاك كل شهر يأتون بها في غده ويفرقها على جنده.. ولا يحاط باطراد ما نزلت بتنبكت من المصائب والإتلاف عند نزولهم بها ولا يحضروا مما أحدثوه فيها من الزور الكبير وقلع بيبان

البيوت وقطع أشجارها ليستعملوها سفينة). إضافة إلى ما قاموا به من مصادرة بعض المنازل وخاصة تلك التي كانت (أعمر ديار تنبكت) أمر بأخذها وتحويلها إلى معسكرات لإقامة الحملة وقادتها) (المصدر نفسه، 156–158).

وبعد جودو جاء محمود بن زرقون الذي سار على سياسة سلفه إضافة إلى اتخاذ سياسة خاصة ارتأى منها أحكام السيطرة التامة على تمبكتو. فقد قام أولاً بمطاردة المعارضة حيث أمر بإلقاء القبض على عدد من علمائها وأعيانها وكل من يعارض السيطرة المغربية ويدعو إلى التحرير تمبكتو.

وقد بلغ عدد هؤلاء نحو نيف وسبعين شخصاً قام بترحيلهم إلى مراكش (المصدر نفسه، 174). وبعد هذا قام بتعيين اسكيا جديد عليها يكون نائباً عن سلطان المغرب. فانقسمت الفئة الحاكمة في سنغاي ما بين معارض ومؤيد. ونتيجة لهذه الخلافات ساد تمبكتو الفوضى والارتباك وتفككت عرى الروابط بين سنغاي وقبائلها.

ووُصفت أحوال تمبكتو إبان حكم زرقون (صارت جسماً بلا روح وانعكست أمورها وتغير حالها وتبدلت عوائدها ورجع أسفلها أعلاها وأعلاها أسفلها وساد أراذلها على عظمائها وباعوا الدين بالدنيا) (المصدر نفسه، 175).

وبعد هذه الحوادث المريرة نجد تغير السياسة المغربية تجاه هذه المدينة بعد تعيين الحاكم المغربي مامي الذي كلف بتهدئة الأحوال في تمبكتو فعادت الأمور إلى نصابها وعاد العلماء والتجار إليها واستأنفت القوافل نشاطها عبر هذه المدينة. وإزاء هذه الأمر ورغبة من سكانها في المحافظة على استقرار الأوضاع في مدينتهم قرروا دفع ستين ألف مثقال إلى سلطان مراكش. وبذلك أضحت هذه المدينة مكانة خاصة (وتلقب ولي العهد المغربي مولاي زيدان بن المنصور بملك جاو وتنبكتو وجنى) (زكي، 158 ومابعدها).

لكن هذه الأمور لم تبق على ما هي عليه من الاستقرار في تمبكتو إذ رجعت الفوضى وعمت المظالم فيها وفي المدن السودانية طيلة السنوات الأخرى من السيطرة المغربية التي استمرت حتى عام 1164هـ/1750م.

ومن هذا التاريخ تبدأ فترة أخرى من تاريخ تمبكتو تمثلت في الهجمات التي شنها الطوارق عليها ونجاحهم في السيطرة عليها عام 1207هـ/1792م وتبعهم الفولة* (زكي، 36–37) الذي سيطروا عليها عام 1243هـ/1827م ثم وقعت في يد التكارير ثم دخلت في عداد المستعمرات الفرنسية عام 1311هـ/1893م (زكي، 168–222)، بعد أن بدأت أوربا توجه أنظارها نحو تمبكتو خاصة والسودان عامة وشهدت المنطقة في القرن التاسع عشر غزو أجنبي جاء من سواحل المحيط الأطلسي (زكي، 168).

النشاط التجاري في تمبكتو:

هناك جملة أمور جعلت من تمبكتو قاعدة تجارية لها مكانتها في المنطقة. إذ بحكم موقعها على حافة الصحراء من جهة وعلى ضفاف نهر النيجر من جهة أخرى قد أعطاها سمة تجارية خاصة. كانت ملتقى طرق القوافل الصحراوية ومركز للطرق المارة للقاطنين عبر هذا النهر (المصدر نفسه، 109). وكان موقع تمبكتو على هذا الطريق المائي قد جعلها تتحكم في جزء كبير من تجارة السودان الغربي. وهذا قد أعطاها ميزة كبيرة على الأسواق المجاورة لها والتي أخذت تجارتها ومكانتها بالانحسار تدريجياً (زاهر، 119). ذلك أن قرب هذه المدينة من مدن أخرى كان لها شأنها في المنطقة أثر كبير في تعزيز المكانة التجارية في تمبكتو على حساب تضاؤل تجارة تلك المدن.

وبين صاحب كتاب تاريخ السودان مدى ارتباط نشاط هذه المدينة مع نشاط مدينة جيني التي وصفها بأنها كانت (سوق عظيم من أسواق المسلمين.. ومن أجل هذه المدينة تأتي الرفاق من جميع الأفاق إلى تنبكت شرقها وغربها يمينها وشمالها وهي لتنبكت في وراء البحرين بين المغرب واليمن في جزيرة البحر حتى فارض وحتى رجع) (المصدر نفسه، 11–12).

وكانت تجارة جني تعتمد على الثروة الطبيعية الموجودة في المنطقة إذ (فيها يلتقي أرباب الملح مع معدن تفاز وأرباب الذهب مع معدن يط).

وبين كذلك تأثير هذين المعدنين على النشاط الاقتصادي في السودان والتي يطلق عليهما المعدنين المباركين (البكري، 1094، 214)، قائلاً: (ما كانت مثلهما في الدنيا كلها فوجد الناس

* (الفولة أو الفيلي مفردها فول اسم أطلقه الشعب على نفسه) دخلوا الإسلام في وقت مبكر وقام زعيمها عثمان الفودي بتوحيدهم وتأسيس مملكة في شمال نيجريا. أنظر: عبد الرحمن زكي، تاريخ الممالك الإسلامية السودانية، ص36–37.

في التجارة إليها كثيراً وجمعوا فيها من الأموال ما لا يحصيه إلا الله سبحانه) (المصدر نفسه، 12).

وكان القاطنين في جانبي نهر النيجر يتقابلون في تمبكتو لمبادلة الملح والبلح ومنتجات المغرب بالقمح وحبوب الكولا* (زاهر، 310)، والذهب من السودان والأرز من النيجر والذهب والرقيق والعاج وحبوب الكولا من سانا نونج وجني. وكذلك كانت تستورد حبوب الكولا من ساحل العاج (زاهر، 119).

وأشار صاحب كتاب السودان إلى ارتباط نشاط تمبكتو بنشاط بلدة البير التي كانت سوقاً تجارية ويأتيها الناس من كل جهة ومكان (واليه يرد الرفاق من الآفاق ويسكن فيه الأخيار من العلماء والصالحين وذوي الأموال من كل قبيلة ومن كل بلاد من أهل مصر وفزان غدامس وتوات ودرعة وتفلالة وفاس وسوس) (السعدي، 21). ولكن بمرور الزمن (انتقل الجميع قليلاً قليلا حتى استكملوا فيه وزيادة مع جميع قبائل صنهاجة بأجناسها). ثم بين السعدي تأثير انتقال أرباب العالم والمال على انحسار نشاط البير قائلاً: (فكانت عمارة تنبكت خراب البير) (المصدر نفسه).

وإزاء هذا فقد أضحت تمبكتو قاعدة تجارية مهمة وبعد نحو قرنين من الزمن أضحت أيضاً مركزاً للتجارة القائمة بين مدينتين جني وولاتة واتخذت لها ميناءً خاصاً لتسوية أمور التجارة والتجار حيث تم تطوير وتحويل قرية الصيد كبارا المجاورة لمدينة تمبكتو وولاتة لتتحكم بعد ذلك في تجارة ولاتة التي أخذت تفقد أهميتها ومكانتها في عالم التجارة لتتحول إلى تمبكتو ايضاً شأنها في ذلك شأن جني والبير(السعدي، 21).

وتعززت تجارة تمبكتو مع عدد من مدن المغرب الأقصى ممثل السوس وسجلماسة وفاس ومع توات وغدامس وفزان وزويله في الصحراء. أما عن تجارتها مع مصر فقد وصلت إلى درجة وثيقة من التعاون منذ وقت مبكر بدءاً من الزيارة التي قام بها لمصر الملك منساموسى (706-733هـ/1307-1332م) والصفقات التجارية التي عقدها مع عدد من تجار مصر (زاهر). وقدم عدد منهم إلى تمبكتو لتعزيز هذا النشاط (زكي، 109 وما بعدها). علاوة على التجار العرب فقد شهدت أسواق تمبكتو كثير من التجار الأجانب الذين وصفوا بالثراء وفيها جالية كبيرة من التجار

* الكولا (حبوب تعتبر شعاراً للصداقة ولم يكن يتم مجلس دون وجود الكولا عن الكولا علاوة على استعمالاتها الطبيعية) زاهر، رياض، الممالك الإسلامية، ص310.

الأجانب منهم التجار الانجليز الذين كانوا يجلبون معهم الأقمشة الانكليزية لمبادلتها بالذهب الذي كان يشحن إلى انجلترا (السعدي، 7–8).

وكتب أحد التجار الانجليز في سنة 1045هـ/1635م (أن أهل سوس لهم تجارة كبيرة في البضائع البريطانية المرسلة إلى تمبكتو) (زاهر، 229، 244–245). وكذلك كانت تتاجر مع الوكالات الأوربية الموجودة في السنغال (المصدر نفسه، 244). ولتمبكتو علاقات ومعاملات تجارية منتظمة مع الثغور الايطالية وبخاصة فلورنسه (زكي، 223)، وزودنا الرحالة الحسن بن الوزان بالمعلومات القيمة عن التجار الواردين على تمبكتو إذ قال: (ومن المدهش أن نرى أن كثرة التجار الذين يقدمون يومياً إلى هنا وارتفاع أثمان جميع البضائع) (زاهر، 116).

وتحدث كذلك عن المنتجات الرائجة في تجارة تمبكتو فقد قال عن ملح تغاز: (فأنهم يبيعون الملح الذي يستخرجونه إلى تجار معينين يحملونه على جمال إلى مملكة تمبكتو حيث الملح نادر ندرة شديدة ومستخرجو الملح ليس عندهم أي طعام بل يأتي به إليهم التجار لأنهم بعيدون عن الأماكن المأهولة مسافة عشرين يوماً) (المصدرنفسه، 182–183).

إضافة إلى تجارة الملح، هناك تجارة الذهب الرائجة عالمياً والمرتبطة ارتباطاً وثيقاً بتجارة الملح إذ أن (قوافل الملح التي تخرج من تغازة وتسافر جنوباً إلى تمبكتو فمالي حيث ينتقل الذهب من ظهور الجمال إلى رؤوس الرجال) (المصدرنفسه، 252).

وأشار الحسن بن الوزان أن تجارة الكتب ورواجها في تمبكتو قائلاً: (يحملون إلى هنا مخطوطات مختلفة من الكتب المكتوبة في بلاد البربر وهنا تباع بثمن أغلى من أي نوع آخر من التجارة) (زاهر، 164). وقد برز في تمبكتو عديد العلماء والفقهاء على رأسهم العلامة والفقيه الكبير الذي ذاع سيطه وبلغت شهرته الأفاق في عصره، العالم أحمد بابا التنبكتي (ت: 1036هـ)، صاحب الكتاب القيم في تراجم أعلام المالكين (نيل الابتهاج بتطريز الديباج) ومختصره (كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج).

وللمنسوجات تجارة لها مكانتها في أسواق تمبكتو التي كان يجلبها تجار غدامس منها قماش خاص كان ينسج في كانو (أحدى مدن الهوسا) وكان يلقى رواجاً كبيراً في تمبكتو لاستعماله كعملة للتداول في أسواقها (المصدر نفسه، 207). كما كان التجار البربر يجلبون أقمشة متنوعة من أوربا. إضافة إلى المنسوجات القطنية التي كانت تجلب من إنجلترا (المصدر نفسه، 163).

هذا مع العلم بأن تمبكتو مشهورة ومعروفة بصناعة الأنسجة. ووصف الحسن بن الوزان هذه الصناعة قائلاً: (دكاكين كثيرة لصناع وتجار وخاصة مثل ناسجي الأقمشة التيلية والقطنية) (المصدر نفسه، 163).

وصف صاحب كتاب الفتاش هذه الصناعة ومحلاتها والعاملين فيها حيث ذكر أن مدينة تمبكتو تحتوي على ست وعشرين (بيتاً من بيوت الخياطين المسماة ننبدت.. ولكل واحدة من تلك البيوت شيخ رئيس معلم عنده من المتعلمين نحو خمسين وعند بعضهم سبعين إلى مائة) (التنبكتي، 180).

وأسس تاجر ايطالي من فلورنسه مقيم في تمبكتو معملاً لنسج السروج على غرار ما كان ينسج من لومبارويا (زاهر، 151).

أما عن الطرق التجارية التي كانت تربط تمبكتو بالعالم الخارجي فهناك نحو أربعة طرق معروفة يربط الأول بينها وبين مصر ماراً بكانم وجاغ. ويربط الثاني بينها وبين المغرب الأقصى بدءاً من تونس. والطريق الثالث يربطها بتونس مروراً بحجار. أما الطريق الرابع فهو الذي يربطها مع مدن السودان المختلفة مروراً بمالي (زكي، 223).

المصادر والمراجع

1- السعدي، عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران (ت 1063هـ/1953م)، تاريخ السودان (باريس، 1964).

2- دريد عبد القادر، تاريخ الإسلام في أفريقيا جنوب الصحراء (الموصل، 1985م).

3- أنظر: كعت، التنبكتي، أحمد بابا، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، القاهرة، 1321هـ؛ محمود كعت التنبكتي؛ تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس (باريس، 1914م)، السعدي تاريخ السودان؛ مجهول، تذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان، (باريس، 1966).

4- دائرة المعارف الإسلامية.

5- ابن بطوطة، أبو عبد الله اللواتي الطنجي (ت 703هـ/779هـ) تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأقطار (باريس، لا ت).

6- نقلاً عن: زاهر، رياض، الممالك الإسلامية في غرب افريقية وأثرها في تجارة الذهب عبر الصحراء الكبرى، (القاهرة، 1968م).

7- ستودارد، لوثروب، حاضرالعالم الإسلامي، ترجمة عجاج نويهض، تعليق: شكيب أرسلان (القاهرة، 1352هـ) 45/3.

8- زاهر، رياض، الممالك الإسلامية في أفريقية.

9- عبد الرحمن زكي، تاريخ الدول الإسلامية السودانية بأفريقية الغربية، (القاهرة، 1961م).

10-عن الملح والذهب، أنظر: البكري، أبو عبد الله بن عبد العزيز بن محمد (ت487هـ/ 1094م)، المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب (باريس، 1857م)، ص171. ابن فضل الله العمري، أحمد بن يحيى، (ت749هـ/1349م)، مسائل الإبصار في ممالك الأمصار (الإسكندرية، 1958م)، ص214.